الرؤية الاجتماعية
والنفسية لمهنة الطب
ومهمة الطبيب

تأليف

عاشور مسعود الأغا

نشر المؤلف :

/ الانتفاضة الفلسطينية .. الآثار الإجتماعية والنفسية .

/ خواطر وذكريات .

/ الأحوال المعيشية للطلبة الفلسطينيين في الجامعات المصرية .

/ حركة الاستيطان الصهيوني (نظام الكيبوتز) .

/ الرؤية الاجتماعية والنفسية لمهنة الطب ومهمة الطبيب .

/ مراحل الحركة الوطنية الفلسطينية .

تساؤلات عن معنى – دلالات – :

بحث يتناول الارتباط الوثيق بين الخدمات الطبية وبين الرعاية الاجتماعية والنفسية

إنجاز : عائلة الأغا في الوطن والمنافي وبالتعاون مع موقع النخلة .

تصفيف : الكاتب الشيخ أحمد تيسير غنام

حقوق الطبع محفوظة

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو حفظه أو اقتباس
أي جـــزء منه أو ترجمته إلى أي لغة أخـــــرى
دون الحصـــول على إذن خطي مسبق من الكاتب

المقدمة

الصحة هي أغلى وأعظم ميدان لحفظ كيان المجتمع والمحافظة على رفاهية أفراده وهي الهدف الرئيسي للطبيب البشري وللإختصاصي الاجتماعي والطبيب النفسي كذلك لذا فإن ممارسة الطبيب لعمله ، والاخصائي الاجتماعي والنفسي للمهنة التي يمثلانها يتطلب من كل واحد من هؤلاء مهارة خاصة ، وأسلوباً علمياً لمساعدة المريض للإستفادة إلى أقصى حد ممكن من العلاج الطبي إلى جوار معالجة ما قد ينشأ من مشكلات نفسية واجتماعية تتعلق بالمريض نفسه وبالتالي فالمهن الثلاث مكملة لبعضها بعضاً .

إن المريض ليس حالة فردية فقط ولكن يشكل ظاهرة اجتماعية يتأثر ويؤثر في المجتمع سلباً وإيجابـاً

من خلال ما يلي .....

١ / إن الانسان كلٌ متكامل تتفاعل شخصيته الجسمية والعقلية والنفسية والاجتماعية باستمرار

٢ / إن أي خلل أو اضطراب يصيب أحد مكونات الشخصية يعتبر من العوامل المؤثرة على باقي الجوانب

٣/ إن أسمى الكائنات الحية هو الأنسان بما أوتى من امكانات وقدرات غيـر محدودة والعلوم الطبية وكذلك العلوم الاجتماعية والنفسية تنظر للإنسان المريض من زوايا عديدة من شأنها أن تدفع عن الأنسان من آثار المرض ويحقق له الأمن في حاضره ومستقبلة .

٤/ إن كل مريض يحتاج إلي نوع معين من المعونة وأسلوب خاص من الرعاية رغم اشتراكه مع الأخرين في نفس الحالة المرضية .

٥/ إن المرض قد لا يمثل المشكلة الأولى للمريض ولكن آثاره والمشكلات المترتبة عليه قد يكون لها من الخطر ما يفوق تأثير المرض
ذاته وربما تتعدى الأثار المريض الي المحيطين به من أفراد أسرته أو المتصلين به .

وقد عرفت هيئة الصحة العالمية (الصحة) بما يلي .

"الصحة هي حالة من السلامة والكفاية البدنية والنفسية والاجتماعية ، وليست مجرد الخلو من المرض أو العجز"

❋ ❋ ❋

من أقوال الحكماء في الطب والتطبيب

وفي هذا الصدد يقول الحكماء والفلاسفة في الطب والتطبيب

"إذا أردت أن تشفي الجسم فإنه ينبغي أن تعم معرفتك كل الأشياء".. "**هيبوقراط**"

"لا يمكن محاولة شفاء العين دون الرأس أو أن تشفى الرأس دون الجسم ، كما أنه لا ينبغي أن تعالج الجسم دون الروح" .. "**سقراط**"

" إن أي طبيب محتاج إلى رؤية إنسانية لمهنته حتى يعلم مدى إمكانية ممارسة مهنة الطب بصورة أفضل مما هيأته له كليات الطب بوضعها الحالي "

"كما أن وظيفة الطبيب تحتاج لإعادة النظر في طريقة تثقيف الطبيب لأن التطور يفرض نفسه لامحالة **د. يحي الرخاوى**

وعموماً فإن تعاون الطبيب مع الأخصائي الاجتماعي والأخصائي النفسي تحتمه وحده شخصية المريض وتكاملها ، ويجب أن يكون التعاون مطلقاً في مراحل التشخيص والعلاج والنقاهة في إطار التكامل والتنسيق بين مختلف جهود المتخصصين لخدمة المريض وعلاجه وتركيز الاهتمام بالمريض

وليس على المرض فقط ، والطبيب بحد ذاته عليه أن يفسح المجال لهذا التكامل إذا أراد لخطة العلاج أن تأخذ مجراها نحو النجاح والشفاء الأكيد ، كما أن من واجبه أن يحتاط لمثل هذه المواقف ويعد نفسه لقبول أطراف هذا التكامل والتعامل معهم معاملة الند للند ضمن خطة موضوعية لصالح المريض الإنساني وفى الوقت نفسه يتهيأ اجتماعياً ونفسياً لهذه المهنة كما تهيأ لها علمياً وفنياً لأنها المهنة الأرقى والألزم والأحب للإنسان في كل زمان ومكان ....

❋ ❋ ❋

موقف الطب والأطباء في قضية الإنسان بصفة عامة

إن موقف الطبيب مع الإنسان المريض هو موقف الإنسان الذى يمد يديـه لأخيه الإنسان الذى يعانى من الألم ويشتكى من المرض وتكون بذلك مهنة الطب مهنة إنسانية ويكون الطبيب هو عنوان العمل الإنساني ..

وليس مجرد عالم يشخص الداء ويصف الدواء وشكراً وإلى اللقاء وعلى الله الشفاء!!

إنها مسئولية أعمق وأشمل وأدق وأعظم والطبيب بهذا الدور يعتبر وريثاً لمهن كثيرة ومتنوعة سادت ثم بادت وأصبح هو الأقدر والأجدر على أن يتولى هذا الدور وأن يؤديه على أكمل وجه، فقد حل محل شيخ القبيلة ومحل أمام المسجد وأخذ وظيفة القسيس وحلاق القرية أو مختارها ...الخ

من هنا لا يقتصر عمل الطبيب على أن يكتب شيئاً ما على ورقة ما ، أو أن يشق بمشرط جرحاً دون أن يحسن الاستماع لحديث إنسان في موقف معاناه !! إنه وإن فعل هذا يكـون متنازلاً عن أهم أدواره دون مبرر ظاهر إذا حدث هذا فالذنب في نظرنا ليس ذنب الطبيب بقدر ما هـو خطأ طـرق تعليمه ،

لقد أصبـــح من البديهي أن معرفة شخصية المريض ودوافعه كائناً من كان ، ونــوع مرضه جسمياً أو نفسياً هــو أهم وأصعب من معرفة نوع مرضه .. تلك المعرفة التي كادت تصبــح من اختصاص الأجهــزة الطبية الحديثة أكثر فأكثر !!

الجميع هنا يذكر ما يـُنشر عن أن تقدم العلم سوف يصل بنا إلى صناعة الطبيب الألكتروني الذي سيقوم بالكشف والتشخيص ووصف الدواء وتقديم قائمة الحساب هذه حقيقة تنذر بها أجهزة الأشعة والتصوير بالموجات فوق الصوتية وأجهزة التصوير المقطعي بالكمبيوتر .

هذه البيانات الدقيقة تجعل الآن سماعة الطبيب الاعتيادية التي ألفناها تنحني خجلاً أمام صورة أشعة الصدر أو رسام مسماع القلب وغيرها ..

فماذا ينتظر الطبيب بعد كل ذلك ؟؟

ألا يمكننا بقليل من التخيل أن نتصور اليوم الذي ستمتلك كل أسرة طبيباً الكترونياً ؟

إلا أن شيئاً واحداً لن يستطيع أن يقوم به هذا الطبيب الآلي منافس المستقبل ألا وهو " الحب " ونقصد به حب الإنسان لإنسان وحب الخير لبني البشر إن هذا الحديد البارد لن يستطيع أن يحب أبداً ولن يمكنه أن يحس بالمعاناة ويشارك المريض آلامه وآماله لأن الحب لا يصنع إلا في كيان إنسان ينبض قلبه بالإنسانية .. إن المريض لا يذهب للطبيب لمجرد أن يضع السماعة على صدره وينقر على بطنه ويدغدغ قدميه ثم يكتب له " الإسبرين" أو "البنسلين" أو "الكورتيزون" ....الخ ولكنه يذهب ليبحث عن " قلب" يسمع ولا نقول أذن ولا نقول عقل لأن الذي يسمع بقلبه هو الذي سيحب بإنسانيته فإذا استطاع العلم أن يزرع القلب المضخة فإنه لن يكون القلب القابع في وجدان الإنسان !!

الطب والحب الإنساني :

الحب إذاً ولا شيء غيره ، ولا شيء يتم بدونه ، ولا شيء يصلح سواه وليس هو حب قيس وليلى أو حب المسلسلات المرئية أو القصص الخيالية والخرافية ....

إنه حب أسمى من هذا كله وأشمل من كل الأنواع " إنه حب الأنسان للإنسانية ، حب إنسان يعالج إنساناً – هذا الحب هو حجر الزاوية في العلاقة بين المريض والطبيب المعالج ، هو أساسها ولبها وغايتها بل ووسيلتها .....

إن القصد من وراء هذا التقديم هو كيف يمكن تعريف الطبيب الممارس " الطبيب المعالج" بوجه خاص وكيف يمكن أن يرتقي الطبيب بذاته ومهنته حتى يستطيع أن يمنح الحب الإنساني الأصيل قبل أن يكتب العقار أو حتى يشخص الداء ومما يؤكد ما نقول في هذا المجال هو دلالات الإحصائيات السنوية في الولايات المتحدة لأنها دقيقة إلى حد بعيد عندما نشير إلى أن نسبة ٥٠% – ٧٠% من المترددين على الممارس العام " الطبيب المعالج " لديهم مشاكل اجتماعية أو نفسية أو الاثنين معاً وأن مرضهم مرض نفسي واجتماعي قبل أن يكون عضوياً

.... وإن نسبة ٢٠ / % فقط من مجموع المعروضين على الأطباء لا يعانون من مظاهر الإضطرابات النفسية .. فيكون بذلك مقابل كل مريض (١:١٥) مواطناً في حاجة إلى رعاية اجتماعية ونفسية خارج الأسوار في المجتمع الأوسع (١:١٥) "فالعلاج الاجتماعي النفسي هو أساس الطب عامة" .

إن الحب الذى نعنيه هنا هو شيء ينبغي أن يدرس ويتعلم وتتقن فنونه في كليات الطب تماماً مثلما تدرس مظاهر الأنفلونزا وكيفية استعمال السماعة على صدر المريض لأن الطبيب دون أي تخصص أو في أي تخصص هو الشخص الذي سيقوم بمهمة فهم المريض ثم يمارس الحب الذي تعلمه إن كان قد تعلمه ، ثم يمد يده ليكتب الدواء من خلال الحب أو يضمد جرحاً من خلال العلاقة التي نشأت وتوثقت بين الطبيب والمصاب

إن الذي يحدث في ظاهرة المرض ليس مجرد دخول الميكروب في الجسم "مثلاً" ولكن المرض ما هو إلا تفاعل إنسان ما له صفاته ونزعاته وميوله وعواطفه بهذا الميكروب الذي دخل جسمه

كما أنه يجب أن يدرك الطبيب بان حالة المريض الجسمية تؤثر سلبياً على نفسيته وعلاقاته فإذا تحسنت صحته ارتفعت معنوياته والعكس إذا ساءت صحته وتدهورت تهبط معنوياته وتتأثر علاقاته بالطبيب نفسه وبغيره ممن يتصلون به .

وهنا تأتي فوائد من تعلم الحب أو تعلم من الحب المهني الناجح أثناء دراسة الطبيب لمهنة الطب ليستطيع الإحاطة بأبعاد الموقف ...

❋ ❋ ❋

دور الطبيب أمام المريض :

لا بد أن يكون تصور الطبيب للموقف غير مقتصر على معرفة نفسه ونفس المريض ، بل عليه أيضاً أن يتخيل فكرة المريض عنه ، تلك الفكرة التي يكونها المريض حتى قبل المثول بين يديه وعليه إذاً أن يحترم هذه الفكرة وأن يقوم بدوره كاملاً وكما ينبغي ، وليس فقط كما يتوقع المريض ، ولكنه يتعدى هذا المطلب إلى ما يحتاجه المريض من إزالة العوارض الطارئة واستعادة الطمأنينة ، ومن ثم الانطلاق المثمر في مجالات الحياة وعلى الطبيب في هذه الحالة أن يتساءل عن السبب الذي دعا المريض دون غيره ممن هم في مثل حالته لأن يحضر ليسأل النصح ، هل هو مجرد ارتفاع في " درجة الحرارة " أم هل هو نقص طارئ في " درجة الاهتمام" أم هل هو ميل لزيادة " درجة العطف "

بهذا الفهم ومهما كانت الإجابة يستطيع الذي تعلم الحب المهني أن يفهم دون كلام وأن يعطي دون قيد أو تعال ، وأن يكون عند حسن ظن مريضه وأكثر

إن هذه العواطف التي سيعطيها ذلك " الحب " الذي نتحدث عنه ليس شيئاً خيالياً مثل قصص الروايات أو عواطف المسلسلات ، ولكنه خبرة مدروسة وموضوعية تعطى بحساب دقيق ولكن بصدق حقيقي ولا يترك الأمر لمجرد التهليل في الاستقبال والتعظيم في الاحترامات الزائفة وإنما هو الصدق الأصيل النابع من الاحترام الحقيقي للإنسان لمجرد إنه إنسان ..

ولكي يعمل الطبيب إلى ممارسة هذا الحب الموضوعي عليه أن يُنحي جانباً معتقداته الخاطئة وآراءه ولا يعتبرها أساس الحياة ، وخاتم ما قيل فيها ، ولا يقيس على أساسها مرضاة دائمة واضعاً في اعتباره أن وظيفته هي إسعاد هؤلاء الناس ، وتخفيف آلامهم قبل تأكيد ذاته وإثبات قدراته الخارقة التي ليس كمثلها شيء

❋ ❋ ❋

معنى المرض وفائدته للمريض

علينا آلا ننسى أن حالة المرض رغـم كل ما يصاحبها مـن آلام وأوجاع وعجز ، إنما تثير بعض النزعات الكامنة عند كل إنسان بما يصاحبها من اهتمام زائد ورعاية خاصة ومن هنا ينبغي أن نأخذ كل الحذر ونحن نفهم الموقف ثم نمنح الحب ، نمنحه بقدر –وللمريض وليس للمرض وأن نفرق بين المريض والمرض وهو أمر صعب عند الممارسة ، ولكنه لن يكون أمراً خيالياً أو ضرباً من السفسطة والتلاعب بالألفاظ ولكن السؤال عن المريض نصف الوقت والسؤال عن المرض النصف الأخر حتى ولو لم يكن الوقت إلا دقائق محدودة .

فإن لحظة صدق إنساني سرعان ما يلتقطها قلب إنسان متعطش قد تكفي أكثر مما نتصور بكثير .

ولتكن المعونة العاطفية بقدر الحاجة تماماً فلا تنقص حتى يبطل مفعولها ولا تطفى حتى يصبح الاعتماد عليها عرضه لإطالة فترة المـــــرض أو اكتساب عادة المرض .

التفاعل بين الطبيب والمريض:

تعتبر العلاقة المتبادلة بين إنسانين مثل كافة العلاقات الإنسانية يحدث فيها من التقارب والتباعد والصراع مثل ما يحدث في أية علاقة بين اثنين ، فكل منهما عنده تصور سابق عن صاحبه وهذا التصور ناشئ عن الخبرة السابقة أو من الحالة النفسية الخاصة بكل منهما ... وعند المقابلة قد يتفق الواقع مع الصورة المسبقة وقد يتنافر .

هناك من المرضى من يتصور الطبيب تاجر سوقي لا أكثر ولا أقل ، فهو يذهب إليه بكل حذر وشك ، وكل همه أن يأخذ منه ما يستطيع بأقل ما يمكن ، فإذا أحس الطبيب هذا الإحساس فهو إما أن يستجيب له تماماً وبذا يصبح أداة سلبية تسيرها نوايا المريض الحذرة ، فلا يستفيد من إنماء علاقة إنسانية حقيقية وإيجابية ، أو هو يتأثر من هذا الأسلوب وينفعل ويتصرف بحذر هو أيضا بل " وبعدوانية " أحيانا سواء بعلمه ودرايته أو بالرغم منه أي بدوافعه اللاشعورية ..

وهنا لا يستطيع الطبيب أن يحب وبالتالي لا يستطيع أن يمنح !! وعلى قدر فهم الطبيب لمريضه وعلى قدر إيمانه بطبيعة عمله يكون نجاحه في أداء عمله وتحقيق دوره في مساعدة مريضه كما ينبغي .

إذ ليس مهماً كمية المعلومات التي يمتلئ بها عقل الطبيب بقدر ما هو مهم طريقة فهمه لمريضه ولنفسه ..

فكم سمعنا عن أطباء يفوق علمهم كل الحدود ولكنهم لم ينجحوا أبداً في فهم مرضاهم الفهم الكافي بما يحقق صلب وظيفتهم وجوهرها ، وهم في هذه الحالة لا يستحقون اسم " الطبيب" بل يجب أن يُطلق عليهم " عالم الطب " حيث أن الطب مهنة مثل سائر المهن قبل أن يكون علماً أكاديميا بحتاً ...

وقد يمثل الطبيب للمريض سلطة والديه ويتوقف موقفه تجاهه حسب خبراته السابقة مع والديه حباً ورفقاً أوكرهاً ، وعلى الطبيب أن يدرك ذلك ويحسه ، ويتصرف بإناة تجاهه ..

واذا كان للطبيب أن ينجح في هذه المهمة الصعبة فإنه ينبغي أن يفهم نفسه تجاه المريض بقدر ما يفهم موقف المريض منه ، وأن يمتلك القدرة على ضبط ومراجعة دوافعه حتى لا يكون كل همه التصرف من على منصة سلطة الطب بخيلاء كاذب ، ولا يكون نهاية واجبه هو توصيل المريض إلى خارج حجرته (عيادته)

❋ ❋ ❋

دور الطبيب في فاعلية الدواء :

هناك الطبيب المؤمن بفاعلية الدواء وبجدوى العقار وهناك مـــن لا يعتقد ذلك ..

فيقول الأول : إن دواء ما كان له فعل السحر معه ..

ويقول الأخر : زميل له في نفس الاختصاص بأنه لا يعتقد ذلك وأن هذا الدواء هو أقراص من الدقيق الفاخر ...

لهذه الدرجة يبلغ الاختلاف مداه والاثنان قد يكونا على حق ، وربما نشأ هذا الاعتقاد من تجربة أولى نجحت وأكدت فاعلية الدواء لدى الأول في حين فشلت عند الثاني واستمرت عقيدة معه في كل مرة يصف فيها الدواء ذاته والمريض يشعر في كل حال بما يدور في داخل الطبيب من مشاعر حتى ولو حاول أن يخفيها الطبيب ببراعة عن وعي مريضه .

لهذه الدرجة يقرر أحد الأطباء الذين يفهمون دورهم العلاجي إذ يقول : " إن المريض يكشف علينا ونحن نقوم بالكشف عليه "

هذه الحقائق ستفيد من عنده استعداد طبيعي لإدراكها أما الأخرين فلا سبيل أمامهم إلا أن يتعلموها مع ما يتعلمون من أشياء لازمة وأشياء غير لازمة .

❋ ❋ ❋

متى يحق للطبيب أن يحيل للأختصاصيين اجتماعياً ونفسياً

إذا كان الطبيب دون أي تخصص – هو الذي سيقوم بهذا الدور ويفهم هذا الفهم من خلال ممارسته لمهنته سيعالج أغلب المشكلات الاجتماعية والنفسية مع المشكلات الجسمية فماذا بقي للأخرين من النفسيين والاجتماعيين ؟

بمعنى :

متى يحق للطبيب أن يحول المريض إلى أخصائي اجتماعي أو أخصائي نفسي ! أو أي اختصاصي أخر ؟ وكيف ولماذا ! .. **الجواب** : هو أنه من باب الواقع العملي لا يمكن تحويل الجميع ولا ينبغي ، ولعل كل الممارسين قد ترددوا مرات كثيرة قبل أن يقدموا على هذه الخطوة ، مرة لعدم إقتناعهم بجدواها وأخرى لخوفهم من تفاعل المريض ونفوره ...!! وكما هو واضح الآن من الحقائق التي ذكرناها فإنه لو تعلم الأطباء عامة دورهم الإنساني الأساسي لاستغنوا فعلاً وفي أغلب الأحيان عن هذه الخطوة الصعبة ..

وحتى يكون التحويل للأخصائي الاجتماعي أو الأخصائي النفسي ذا معنـــى فإنه ينبغي أن يكون ذا هدف محدد عند الطبيب قبل المريض ، وأن يكـــون نابعاً عن اعتقاد حقيقي بجدوى هذه الخطوة ، وليس لمجرد التخلص من مريض مزعج ؟! أو مريض ثقيل الظل !! .

❋ ❋ ❋

من هو الطبيب الحكيم

إن الطبيب هو الذي عليه أن يتخذ قراره منذ البداية وقبل أن يتوه في بحر المحاولات والأبحاث التي لا يؤمن الطبيب ذاته بجدواها هنا وبالذات تجدر الإشارة إلى نقطة هي من صميم عمل الطبيب الإنساني وهي أن يكون الطبيب واضحاً مع مريضه تماماً ، فكثيراً ما يلجأ الأطباء إلى إخفاء الأمر ظانين أنهم بهذا يخففون من مقاومة المريض ، ولكن هذا الخداع يزعزع الثقة في الطبيب وفي حالات أخرى في الأخصائي الاجتماعي أو الأخصائي النفسي إن وجد ، أو أن يطلب منهما الدور المناسب لهما .. ولم يصدقا القول مع المريض ..

إن كل ما ذكر من أدوار للطبيب هي من أساسيات مهنة الطبيب وأن على أي فرد يريد أن يمتهن هذه المهنة الإنسانية العالية المستوى أن يهيئ نفسه لأن يكون على مستوى هذه المهنة الإنسانية الراقية وبدون تردد أو انتظار . لأنه ومن خلال الفهم الإنساني لمهنة الطبيب فانه مطالب بأن يكون مركز إشعاع للمشاعر الإنسانية السامية ، وأن تنعكس هذه الإشعاعات على مجاميع المرضى ولو خلال دقيقة من الزمان ؟؟ "فإن مالا يدرك

كله لا يترك كله " ولا بد من بداية وأن طريق الألف ميل يبدأ بخطوة ...

وعن طريق هذا الوعي الإنساني للمهنة يمكن أن يلتقي الطبيب مع الأخصائي الاجتماعي الذي يمتهن الخدمة الاجتماعية وهي مهنة إنسانية قلباً وقالباً ..

ومن هنا تبدأ طريق الألف ميل في مجتمعنا .. وحين تزداد الأعداد وتتحسن الخدمات ينبغي أن تكون مضاعفة للصواب وليس تكرار للخطأ ... " **فلنعمل الصواب مهما كان ضئيلاً ، ولنتجنب الخطأ مهما كان تافهاً** " !

إن المشكلة التي تواجهنا في أساسها تتركز في تكوين الطبيب " الإنساني" وفي تأهيل الإخصائي الاجتماعي " الواعي " بعد إثبات وجوده وتأكيد تعاونه ، وبعد كل هذا تأتي الإمكانات التي يكثر الكلام حولها ولا نتردد في توجيه الاتهامات لها والتجني عليها ...

وخلاصة القول : اذا رجعنا لأصول الكلمة فإن مدلولها يفيد الإصلاح والإحكام .. فنقول طبب الشيء بمعنى أصلحه وأحكمه ، وطب به أي بالشيء معناها ترفق بالشيء وتلطف به والطب من علوم الحكمة ... والكلمة الدارجة طبطب على الشيء يعني ربت عليه ....

إن الطب عندنا في وطن العرب هم أوائل الأطباء وأسبق الحكماء يعاني من البعد عن أصل تعريفه – يبتعد عن معرفة أضل الأشياء بأفضل العلوم ويكتفي بمعرفة ظاهر الأشياء ببعض العلوم .

الطب بهذه الصورة و بهذه الكيفية ليس له علاقة بالإنسان ونفسيته وبيئته ، ولكنه يتعلق فقط بالأعضاء وتركيبها وهو والحالة هذه ليس طباً أبداً ولا حكمة ولا صحة ..!! ومن يمارسونه ليسوا أطباء ولا هم بالحكماء !! ويكون كذلك إذا هم اهتموا بصحة الإنسان ككل ..

* * *

الإنسان جسم ونفس في بيئة اجتماعية

فالإنسان وحدة واحدة أجزاؤها مترابطة أشد الترابط وتؤثر في بعضها أبلغ التأثير وأدقه ، فالحالة العضوية تؤثر في الحالة النفسية تأثيراً شديداً ومباشراً ومن أبسط الأمثلة أن ارتفاع درجة الحرارة قد يصاحبه أعراض عقلية شديدة مثل الهذيان والجذاع والهلوسة ..

ونستطيع القول دون تردد أنه لا يوجد مرض جسمي بحت يؤثر في الجسم دون النفس ، كما أنه لا يوجد مرض نفسي بحت يؤثر في النفس دون الجسم لأنه لا يوجد جسم بدون نفس إلا في الجماد والجثث ، ولا يوجد في نفس بدون جسم إلا في الأرواح والأشباح ، كما لا يوجد فرد معزول عن الجماعة إلا للعقاب ، ولا توجد جماعة تخلو من أعضائها إلا في حالة اندثارها ونهايتها

فالمرض ليس إلا تفاعل الجسم والنفس معاً لصعوبات الحياة وأخطارها سواء كانت هذه الصعوبة جرثومة تغزو جسم الإنسان ، أو خيبة أمل تصيب آماله وأحلامه .. إذاً والحق يقال : لو أن الطبيب المعالج جسمياً قد عرف معنى الحكمة والطب و

بالشكل المطلوب ولو أنه طبب المريض طبابة كاملة ، أي لو أنه أصلحه وأحكمه وترفق به وتلطف معه في نفس الوقت الذي يتم فيه الكشف عليه بدنياً لأدى الطبيب بذلك أعظم خدمة للمريض الإنسان والإنسان المريض ، لأن أي إنسان لا بد أن يعبر عن ذاته ! .. ولا يذهب المريض للطبيب لمجرد أن يضع الطبيب السماعة على صدره وينقر على بطنه ويدغدغ قدميه ، لكنه يذهب ليعبر عن حاله ويشكو للطبيب حاله وهذا هو التعبير عن الذات ..

لا بد من شكوى لذي مروءة يواسيك أو يأسوك أو يتوجع ..
إن الإنسان الذي يحرم من فرصة التعبير الكلامـــي بحنجرته ، فإنه قد يعبر عنه بجسمه أو بأحشائه .. وهكذا .. إن الرجل الذي لا يستطيـــــع أن يعبر عن صـــراع قائم داخل نفسه بين الاستقلال والاعتماد على والديه قد يصاب بقرحة المعدة التي تعلن الاحتجاج على هذا الموقف غير المستقر ..

ومن النماذج أيضاً يقال : أن الموظف الذي لا يستطيع أن يبلغ رئيسه يتقيأ تعبيراً عن عدم الرضا ، وكذلك الزوجة التي لا تستطيع أن تشتم زوجها تتصنع السعال ..

على الطبيب البشرى (الجسمي) أن يعلم ذلك تماماً وأن يعلم أيضاً أن عليه أن يستمع وأن يفسح صدره لمرضاه .

فإذا وجد المريض أن الطبيب ذو مروءة لا يكتفي بأسوه ولكنه يؤسيه ويتوجع له أيضاً .

إذا حدث هذا كان الطبيب يقوم بعمله كإنسان حكيم وإذا وسع الطبيب دائرة اهتمامه حتى يشمل الأحوال الاجتماعية فإن هذه العملية هي من صميم الصحة ، وهذه الاهتمامات في الطب الحديث تتم بالدراسة الاجتماعية بواسطة المختصين الذين يهيئون المساعدة اللازمة للمريض وربما تتم بصورة وقائية أعم وأشمل تحت مفهوم إصلاح المجتمع ككل !!

وهذا موضوع آخر ، وفى الحقيقة الأساسية هي أن الطبيب الجسمي إن كان حكيماً فهو يستطيع أن يساعد مرضاه قبل أن يحيلهم إلى جهة أخرى نفسية أو اجتماعية .

وبمجرد أن يشعر المريض أن إنساناً يهتم به لا بأعضائه فحسب ، فإن هذا الشعور لدى المريض الذى يجد مكاناً يتحدث منه وإنساناً يستمع إليه ويفهمه قد يكفيه مؤونة التحويل إلى أخصائي اجتماعي أو نفسى أو حتى أخصائي طبي (جسمي) .
إذاً لو توفر لدينا الطبيب الإنسان الذى يجيد الاستماع ويحسن الفهم والتلطف بالمريض فبذلك يصبح الطب لدينا حكمة ويصبح الطبيب حكيماً والحكيم لقماناً ويصبح المريض إنساناً .

إنها صفة التطور ، وإن وظيفة المخلصين من أبناء هذه الأمة أن يعملوا على التعجيل بهذا التطور ما أمكن ونخلص بالسؤال التالي ..

❋ ❋ ❋

من هو الطبيب المطلوب ؟ وما هو الطب المطلوب

الطبيب هو من درس الطب ومارسه ودرس تكوين الإنسان كمفهوم موحد من جسم ونفس يتفاعلان في بيئة اجتماعية تحيط بهما ، ثم درس ما يعترى جسم الإنسان ونفسه من اضطراب وخلل ثم تخصص بعد ذلك كيف يشاء يتخصص فيما يصيب الجسم (أكثر من النفس) من أمراض أو فيما يصيب النفس (أكثر من الجسم) من اضطراب وهذا تحت ظلال البيئة الاجتماعية التي يعيش داخلها الإنسان وتحيط به من كل مكان ، وبمرور السنين الطوال وبممارسة التشريح والمداواة والكشف والعلاج ، يختلط هذا الفهم المتكامل للإنسان بعقله ودمه ولحمه فيصبح جزءاً لا يتجزأ من شخصية الطبيب ومن مكونات حياته يعمل بوحي منها ويسير على هداها ..

أما بالسنبة للعلاج فنستطيع أن نقول بأنه يكاد يستحيل في الوقت الحاضر على أي صورة من الصور وبأي جهد خارق أن يعالج هذه الوحدة المتكاملة (الإنسان بجسمه ونفسه) علاجاً كاملاً إلا من درسها كوحدة متكاملة ..

وفي هذه الحالة لابد من تكاتف جهود الاختصاصيين من الأطباء والاجتماعيين والنفسيين ... وينطبق المثال الذي قيل بشأن الطبيب المعالج الذي يكتفي بإعطاء الحقنة أو بكتابة الوصفة الطبية على ورقة رسمية حكيماً ، فكذلك يكون الاخصائي الاجتماعي أو النفسي المعالج الذي يكتفي بالكلام لكل حالة ليس حكيماً اجتماعياً أو حكيماً نفسياً ...

❋ ❋ ❋

ما هي الأسس العامة للعلاج ذي الثلاث شعب ؟

فالأسس العامة للعلاج تتضمن بادئ ذي بدء فحص وحدات الإنسان من جسم ونفس وعقل ، كما تشمل دراسة بيئته من ناس وأشياء ... كل ذلك للوصول إلى هدف محدد في النهاية وهو القضاء على ذلك الطارئ الذي اعتراه وهو المرض ، إن قولنا هذا لا يعني كما أنه ليس معقولاً في وقتنا الحاضر أن نلزم الطبيب بكل هذا العبء وحده أو نطالبه بالتضحية بباقي المرضى من أجل مريض أو عدد محدود من المرضى الذين يتوجعون ويتألمون وينتظرون البلسم الشافي على يد الطبيب .

وفي هذا المقام يأتي دور الوعي الإنساني والوعي العلمي والوعي العام للطبيب لكي يلجأ إلى من سيعاونه في مهمته الإنسانية ممن يجد عندهم من الخبرة والوقت ما لا يستطيع هو أن يلم بكل أبعاده فيستعين بالأخصائي النفسي لدراسة وظائف النفس دراسة تفصيلية عميقة مقننة ومتقنة ، ويستعين بالأخصائي الاجتماعي لدراسة البيئة الاجتماعية بكل ضغوطها واحتمالاتها و صعوباتها وتشعباتها ولا نقول تعقيداتها ...!!

على هذا الأساس فإن أي علاج ينبغي أن يكون ذي ثلاث شعب ، أنه في هذه الحالة لا يمكن أن يغني علاج عن أخر مهما بلغ الحماس لهذا العلاج والإيمان به والبذل فيه ..

ولكن الذي يحدث هو أن يغلب علاج على الآخر ولكن ليس على حساب ذلك الآخر ولا يعني إطلاقاً الاستغناء عن ذلك الآخر .

إن أمر علاج أي مريض مهما اختلفت وسائل ذلك العلاج لا يعدو أولاً وأخيراً أن يكون تقوية قوى المريض الدفاعية للانتصار على القوى المخربة التي اجتاحته حتى المرض .

" وهذا هو السبيل في المعارك الحربية سواءاً بسواء " .

إن تركيب الإنسان العادي لا يختلف عن تركيب المريض إلا في التفاصيل كماً وكيفاً ، بمعنى أن الإنسان العادي يعاني مما يعانيه المريض ولكن وجه الصحة يغلب عليه فيعيش في أمن وطمأنينة وفاعلية وتكيف ..

فماذا يحدث عند المريض ؟

الذي يحدث أن القوى الطبيعية التي تقاوم ضغوط الحياة الخارجية وضغوط الصراعات الداخلية تتناقص .. وتضعف وتقل إلى درجة لا تعود تسمح للحياة بالاستمرار في دعة وسواء ، وهنا يختل التوازن وتظهر الأعراض ..

فماذا يفعل الطبيب ؟

يمد الطبيب يده بحنو وثقة وبالسرعة الممكنة كلما استطاع ذلك لترجح كفة المقاومة الطبيعية للمريض ضد هذا الهجوم المرضي المخرب وهو بفعل ذلك يلجأ إلى كل الوسائل العلمية التي تعينه وتساعده للوصول إلى هدفه وهو سلامة الإنسان وصحته وسعادته ، كما وأنه يلجأ إلى طلب المساعدة من الخبراء في مجال اختصاصه ولا يتحرج في ذلك .

هذا هو الطبيب الحكيم الذي لا يضيع الفرص الثمينة أمام الطب البشري

(الجسمي) والطب النفسي والطب الاجتماعي ليأخذ كل دوره في تقوية دفاعات المريض وزيادة تحصيناته ..

هذا هو الطبيب الذي يقف بجوار المريض ويرتبط به ليأخذ بيده من خلال علاقة عاطفية (علاقة حب) إنسانية يعرف كيف يبدؤها وكيف ينهيها وكيف ينميها إذا احتاج الأمر ذلك ، ويعمل من جانبه وبجانب هذا الموقف المهني الصادق باتخاذ موقف مكمل بتقديم النصح بتغيير البنية الاجتماعية ، أو بتطوير وتنمية الروح المعنوية للمريض لتتحسن بذلك حالته النفسية ، ثم يتيح الفرصة أمام الاختصاصات الاجتماعية والنفسية ذات الخبرة والممارسة النشطة لتؤدي دورها وتأخذ مكانها ومسئوليتها .

هذا هو الطبيب المطلوب .. وهذا هو الطب المرغوب

❋ ❋ ❋

الخاتمة

من خلال عرضنا السابق وجدنا الارتباط الوثيق بين الخدمات الطبية وبين الرعاية النفسية والاجتماعية في صورة تفاعل هذه العوامل والمؤثرات وهي في أصولها ناتجة عن اختلاف وتفاوت وتباين الظروف الاجتماعية والنفسية والمرضية (العلاجية) من مريض لآخر ..

ومن هنا كما اتضح لنا ظهرت أهمية وضرورة إيجاد ما يخفف من حدة هذا التفاعل ، وبمعنى آخر ما يساعد المريض على أن يتكيف بظروفه الراهنة مع المرض الذي يعاني منه والعلاج الذي لا بد له أن يتبعه ليصل إلى الشفاء في أقرب وقت وبأقل معاناة ..

هذا كله يتبلور في صورة خدمات اجتماعية ونفسية ينبغي أن تؤدى للمريض ويجب أن يعترف بها الطبيب المعالج ويلزمه الاحساس بها عندما يضع خطة العلاج للمريض الذي بين يديه

هذه الجهود تضاف إلى جهوده وإن كانت من لون آخر ويؤديها إلى المريض أناس آخرون يمكنهم السيطرة على البيئة المحيطة بالمريض أحياناً وعلى سلوك المريض أحياناً أخرى ويجتهدون للوصول إلى معرفة مصدر المرض وحالة المريض المعيشية سعياً وراء إمكانية عمل التغيير اللازم الذي يتمشى مع احتياجات المريض ، ألا وهم الإخصائيون الاجتماعيون والإخصائيون النفسيون .. فتكون بذلك الفكرة العلاجية الحديثة بوجه عام تنظر إلى المريض كوحدة قوامها العوامل الجسمية والوجدانية والاجتماعية ..

هذه الفكرة تربط بين العوامل الشخصية للمريض والعوامل البيئية المحيطة به وتجمع بينهما .

وبتطور الرعاية الطبية واندماجها مع الرعاية الاجتماعية ، أصبح الأمر ملزماً بأن تستمر هذه العلاقة جنباً إلى جنب لكي تصل الرعاية الكاملة والسليمة .. وأصبح الأمر ملحاً أيضاً أن يتقبل الأطباء (في كل التخصصات) إسهامات الخدمة الاجتماعية

في المجال الطبي وما يمكن أن تقوم به في تجاه المريض باعتبار أن المريض كائن اجتماعي بكل ما تعني هذه الكلمات من مفاهيم اجتماعية ونفسية وحياتية ، وبالمثل يأتي دور الأخصائي النفسي الذي يعتبر متمماً لدور الطبيب ودور الأخصائي الاجتماعي ، إذ أن الجميع يسعون إلى هدف واحد ، ويعملون في اتجاه واحد من أجل إعادة المريض من جديد إلى حياته الطبيعية سليماً منتجاً .

وبهذا الفهم لمهنة الطب ومهمة الطبيب نجد أن الطبيب الحكيم لا ينكر أي وسيلة من وسائل العلاج ولا يتعصب لأية مهنة دون غيرها وإن كانت مهنته كطبيب معالج تسبق غيرها في الترتيب أو تتزامن مع سواها في محيط الخطة العلاجية ، فالطبيب الواعي لمهنته المدرك لأهمية دوره هو الذي يأخذ بيد الإنسان المريض كائنة ما كانت شكواه وأن يقف بجواره حتى يتمكن المريض من تجميع شتات نفسه ويواصل رحلة الحياة كأحسن ما يكون وأصح ما يكون بفضل جهود الطبيب الحكيم وبفضل من يساعدونه في مهمته الإنسانية المقدسة ومن كل المستويات الفنية والمهنية طبية كانت أم اجتماعية أو نفسية بروح الفريق الواحد

لصالح المريض الإنسان ليتبوأ مكانته الأولى بين الأصحاء والأسوياء " فالصحة تاج على رؤوس الأصحاب لا يدركها إلا المرضى" .

فتتحقق بذلك الحكمة وتسود العافية .

" **يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب** " .

صدق الله العظيم .

فالحكمة هنا معناها تحقيق العلم وإتقان العمل ، وارتباط ذلك بالخير الكثير الذي لا يخص فرداً دون آخر إذ لا بد أن يعم الخير الكثير ليشمل الجميع إذا ما أتقن الحكماء العمل وفكروا بعقولهم في شأن غيرهم الذين يحتاجون إلى حكمتهم

والله ولي التوفيق .

❋ ❋ ❋

الفهرس

المقدمة ٣
من أقوال الحكماء في الطب والتطبيب ٦
ما هو موقف الطب والأطباء في قضية الإنسان بصفة عامة ٨
الطب والحب الإنساني..... ١١
ما هو دور الطبيب أمام المريض ١٤
معنى المرض و فائدته للمريض ١٦
التفاعل بين الطبيب والمريض ١٧
دور الطبيب في فاعلية الدواء ٢٠
متى يحق للطبيب أن يحيل للاختصاصيين اجتماعياً ونفسياً ٢٢
ما هو الطبيب الحكيم ٢٤
الإنسان المريض جسم ونفس في بيئة اجتماعية ٢٧
من هو الطبيب المطلوب ؟ وما هو الطب المطلوب ٣١
ما هي الأسس العامة للعلاج ذي الثلاث شعب ٣٣
الخاتمة ٣٧
الفهرس ٤١

تم بحمد الله